سافر لبنان في الصيف

مغارة قاديشا العجيبة

لميشيل سليم كعبر

... وقفلت راجعاً من الأرز الخالد ، بعد ان قضيت زمناً في هيكل الدهور ، في ذلك الصبح السعيد ، وقد ارتفعت الشمس في كبد الافق ، فاسرعت الى الفندق ، وجمعت حقائبي ، ومن هناك الى السيارة . وكان بزيمها قد نفد بالامس لدى وصولنا الى الارز . ولكن انحدار الطريق يسهل علينا الهبوط الى بشرّي ، مدينة المقدّمين ، حيث تملأها ثانية

ورفع السائق قدمه عن الدواسة ، فانحلّت ، وتدحرجت السيارة هابطة على ذلك الطريق الكلسي الابيض ، على كتف قاديشا الجميل ، الوادي المقدس ، حيث لا يزال الى اليوم يفوح من جنباته شذى القداسة ، وعطر التقوى . وكان تدحرج السيارة لذيذاً مريحاً ، لا عنف فيه ولا شدة ... ألا ليت السيارات تدرج بهذه السهولة ، دون ضجيج آلاتها المزعج ! ويالها من أمنية !

وعند ما انتصفنا الطريق ، ما بين الارز وبشرّي ، ضغط السائق على الكوابح ، فوقفت السيارة ، وتهدّدت حركتها الاندفاعية . فنزلنا منها ، أنا والسائق ، ومن هناك أخذنا طريقاً فرعيًّا ضيقاً كمسالك المعز ، فالوادي العظيم الهائل تحت اقدامنا عن جانب ، والجبل يلتصق بأكتافنا عن الجانب الآخر ، وكلما تقدمنا ازداد ارتفاعاً وشموخاً . وعرض هذا المسلك المؤدي الى مغارة قاديشا لا يتجاوز في بعض الاحيان متراً وربع متر ، وقلما يتسع الى مترين . انهُ حقًّا لمنظر يبعث الدهشة والروعة في النفس ، ويأخذ بمجامعها . وكنت اتوقف مراراً عن المسير ، ونحن معلقين بين السماء والارض لأتملى من منظره ، واجتلي روعة محاسنهِ المخيفة ، فعشرات الامتار من فوقنا ، ومئات الامتار من تحتنا ... ترى لو زلّتْ قدم أحدنا ، وهوى الى الهوّة السحيقة ، فوق الصخور النائمة ، ماذا يكون مصيرهُ ؟ لا لا خوف من الزلل ما دامت الاعصاب ثابتة والسير هادئاً وطيداً !

مرّ بنا مسافة طويلة ، قد تزيد على ثلاثة ارباع الميل ، على درب المآعز هذا ، وما هو كذلك بل هو ممرّ شقته شركة كهرباء قاديشا الوطنية ، لتصل الى المغارة لاجل اعمالها الخاصة . ولما نكد ندنو من المغارة ، حتى طرق اسماعنا خرير المياه العذب ، الذي تحوّل ، مع اقترابنا شيئاً فشيئاً ، الى هدير عظيم ، هدير تلك المياه المتدفقة ، على دوّامات شركة الكهرباء ، التي تنير شمال لبنان كله ، هابطة

نحو الوادي العظيم ، كأنها امواج بحر صاخب تتدافع بعضها اثر بعضها ، في زئير دائم متواصل ، هي رمز الحياة الجاهدة المثمرة

هذه المياه التي تمنح الحياة للوادي المقدس ، لهرين لبنان ، تحكي في تدفقها الحي ، التدفق الخصب الذي امتاز به الشعب الذي يرتوي منها على مدى الاجيال . وما السمعاني والحصروني ويوسف كرم وجبران ، سوى بعض اولئك الذين شربوا من هذا المعين الخالد ، فنفحهم بروح العبقرية ، ووهبهم اكسير الخلود !

ووصلنا المغارة ، والمياه تهدر هديراً ، فوجدنا هناك بعض الزوّار ، ينتظرون في الخارج ، المراقب الدليل القائم عند مدخلها ، الذي اقتطع لنا تذاكر الدخول . ومن ثم ادخلنا اولاً الى شبه غرفة منقورة في الصخر . فأضيئت الانوار الساطعة ، لتنير حالك الظلام المخيم في جوف هذه الاتفاق الممتدة المتشعبة تحت الجبل الشامخ ، مسافات لا يعلم مداها وعدد شعبها الاّ الله خالقها

تبلغ مساحة هذه « الغرفة » الاولى ، اكثر من خمسة وعشرين متراً مربعاً على احد جوانبها يقع الممر الضيق الذي يبلغ عرضهُ اكثر من متر واحد ، مدته شركة كهرباء قاديشا مسافة طويلة في الداخل . ومن بعد هذا الممر حتى الحائط المقابل من الغرفة المذكورة ، مياه المغارة التي تنصب خارجاً الى مجراها في الوادي المقدس ، حيث تعرف بنهر قاديشا ، حتى مقربة من طرابلس ، ومن هناك يتبدل الاسم الى نهر « أبو علي » .. ويبلغ عمق هذه المياه ، في « الغرفة » كما استدللت بالحدس والتخمين ، امتاراً عدة ، لا كما هي في اعماق المغارة ، حيث هي اقلُّ عمقاً بحسب اتساع المجرى او ضيقه

غطسنا ايدينا في هذه المياه ، فاذا بها باردة كالثلج ، ولم يسعنا ابقاؤها فيها كثيراً . ثم ارتشفنا منها قليلاً ، وتلذذنا بطعمها العذب ، بهذا الرحيق الزلال ، الخارج من كنف الطبيعة قبل ان تدنسه يد الانسان

انّ تخطينا هذه « الغرفة » او قل ان انتقالنا منها الى مقدمتها ، نحو الظلام ، ثم انارة الكهرباء ، وسطوعها ذلك السطوع الباهر ، الذي يحيل ليل المغارة الدامس الى نهار منير ، هو الذي خيل الينا وجود هذه « الغرفة » الوهمية ، لاتساعها عما سواها ، ولشكلها المربع تقريباً ، لضيق النفق في ناحيتها الداخلية . على اننا لم نكد نتخطاها ، وتضيء الانوار ، حتى سمعنا صوت الدليل يقول : « من يطلب بطيخاً او قرعاً ؟ لدينا هنا من كل صنف . فمن يرغب ؟ » . والتفتنا نحن في دهشة واستغراب ، نفكر في ما يعنيه وما الذي يمنعهُ في هذا المكان على المناداة على شيء يجتنى في الحقول ، لا بين الصخور وفي اغوار الكهوف ، فاذا تحت اقدامنا هوة واسعة ، فيها اشكال من الصخور الشمعية اللون ، في قوالب مختلفة مستديرة منها ما يشبه البطيخ او القرع حقاً . ولما رأيناها عرفنا قصد صاحبنا . فابتسمنا لوصفه الذكاهي الطريف . فهذه المغارة ، تمج بهذه البوارز والنواتىء في الصخور فيها ما يبرز من الارض

Stalagmite ومنها ما يتدلى من السقوف Stalactite وهذه الرواسب المتحجرة توجد في كثير من المغاور او الكهوف في العالم وتكثر وتقل في بعضها لكن المغارات المشهورة بها قليلة . وهي تتخذ في اكثر الاحيان اشكالاً غريبة ، كرأس فيل ، او رؤوس بشرية ، او اقدام ، أو تماثيل ، وقد تتكون اشكالاً مغروطة ، أو تبدو كالجليد ، ويغلب عليها اللون الاصفر الشمعي ، ويضرب لونها مراراً الى الاحمرار أو الاسوداد ، وغير ذلك من الالوان الجميلة ، انما تبدو كلها كأنها مصنوعة من الشمع ، مع انها من الصخر ، وتحس في نفسك لدى رؤيتها بشعور غريب . وانك تود مسكها ، وانها ستذوب أو تفتت أو تتكسر حال لمسك لها . مع انك حين تمسها حقيقة تشعر بها صلبة دون شك لانها من الصخر ، وتحس بها باردة كالثلج ، وخاصة في المغاور التي كقاديشا

في فرنسا مغارات عديدة مثل هذه : أشهرها ، كما أعرف ، ما يقع في جبال البيرنه ، فهناك قرب لورد عدة منها : كمغارة الدئب ، ومغارة الملك ، وقد زرت الاخيرة . لكن أشهرها مغارة بيتارام التي يقصدها السياح خصيصاً ، وفيها ينحدر المرء في بعض أجوافها الى ستين متراً . وفي لبنان ايضاً غير مغارة قاديشا هذه ، مغارة نهر الكلب ، أي مغارة جعيتا ، قرب بيروت . وهاتان المغارتان تعدان من أشهر مغاور العالم ، بهذه النواقيء الغريبة التي فيهما ، فضلاً عن أن حدود نهايتهما لا تعرف حتى اليوم ، رغم الجهود التي بذلها كثيرون من الباحثين . والذي اذكره ان بعض اساتذة الجامعة الاميركية ، دخلوا مغارة جعيتا في زورق ، قبل الحرب بعدة سنوات ، قاصدين ارتيادها والوصول الى آخرها ، اي الى منبع نهر الكلب ذاته ، وبقوا هنالك زمناً طويلاً ، وأعادوا الكرة مرة أو مرات اخرى ، لا اعلم تماماً ، فلم يفلحوا ، لبعد الشقة ، ثم لضيق المغارة في الاقاصي التي وصلوها . وكذلك دخل المغارة منذ بضع سنوات ، ثلاثة من الروس ، وقضوا فيها يوماً أو يومين ، وخرجوا منها من دون نتيجة — وقد قبض عليهم البوليس وحقق معهم ، خوفاً من أن يكونوا من الشيوعيين ، وبينهم تسميم أهالي بيروت . كذلك مغارة قاديشا ، لم يعرف بعد منتهاها ، ولم اسمع ان احداً سعى لمعرفته ، بذات الاجتهاد الذي بذل لاجل معرفة مغارة جعيتا ، وذلك لان المغارة المذكورة لم تكتشف أو بالاحرى لم يشق اليه درب الماعز الذي سبق وصفه ، الا منذ ست سنوات ، على ما اتصل بي . وقد سألت الدليل ، حينما وصلنا الى اقصى ما سُمح لنا بالتوغل فيها ، هل نهايتها قريبة من مكاننا : فقال لي أن بعضهم توغل فيها قليلاً ، فاتضح لهم انها طويلة جداً . هذا مع العلم ان المسافة التي مرتاها نحن تعد بعشرات الامتار ، كلها تحت الجبل العظيم . الذي تنبت عليه ، من فوقنا ، أشجار الارز الخالد !

وكان الدليل يسير بنا ، يروي لنا ما يفقهه من معنى هذه الاشكال ، فيصفها بلهجة فكاهية ، بتلك اللهجة اللبنانية العذبة ، التي يمتاز بها أهل الشمال . ولما ادخلنا الى كهف صغير هناك اضطررنا ان ننحني كثيراً ، لان المدخل كان واطئاً جداً . كذلك في الداخل كان السقف واطئاً ، فكنا ننحني

فيه قليلاً . وقد شعرنا في هذه النقرة ببرودة اكثر مما شعرنا به في النفق الكبير ، مع ان لا ماء فيها أبداً . وأرانا الدليل شيئاً في طرف هذه النقرة المستديرة المجوفة السقف ، يشبه ثمرة (زر) طربوش مقرفي ، وقال لنا : « هذا طربوش ابينا نوح ، ألا ترون شرابته هنا ؟ ... قد تركه هنا لما زار لبنان ، اذ نام هنا فنسيه . وكبر الطربوش كما ترون ، وصار مغارة صغيرة ، في داخل المغارة الكبيرة . ويظهر ان الجبل ارتفع مع انتفاخ الطربوش ! »

وكان الدهليز أو النفق يضيق احياناً الى مترين ونصف متر ، ثم يتسع الى خمسة او اكثر قليلاً ونحن نسير على الممر الضيق ، ونستند الى الحائط بأيدينا ، في ذلك الجو المشبع بالبرودة ، وان لم يكن رطباً ، كما يظن المرء لاول وهلة . وكانت الاشباح العديدة في النواتي ، تعد بالعشرات في كل خطوة ، ولهذه الكثرة ما عدت اذكرها كلها ، بل بعض التي فكهنا الدليل بأوصافها الغريبة . ولكني لا اقدر ان اعدد هنا حتى هذه : —

« انظروا هنا لا في أعلى : هذه هي الملكة فكتوريا ، وناپوليون ، والملك ادوارد ... ما لكم ؟.. لا تضحكوا .. اني اتكلم جادًّا .. أنا لا اعرف الهزل ... انظروا جيداً . نعم ، هؤلاء هم ، للملكة فكتوريا ، التي دعوا باسمها الدارعة التي غرقت في طرابلس قبل الحرب .. وهذا نابليون .. انتم تعرفونهُ ! ولويس الرابع عشر ... لا تخالوني اسخر منكم ... لا ... هم ليسوا في بلادهم في اوروبا ، بل جاؤوا الى هنا ، وجمدوا ايام الشتاء ، لما اشتد البرد عليهم ... انظروا ايضاً ، هذا خرطوم فيل ، مده ليأخذ تلك التفاحة ، أو عنقود العنب ، فجمد . . . أتريدون شراء بعض التفاح ، والبرتقال اليافاوي ، والعنب الزحلاوي ... أتريدون غزلاناً ... !! »

وكذلك كنا ننتقل من مكان الى آخر ، والدليل يتابعنا بهذه الاحاديث . ويصلينا بوصفه لتلك الاشكال والاشباح الغريبة . والحقيقة ان بينها ما كان يشبه الملكة فكتوريا ، وناپوليون ، والملك ادوارد ، وسواهم ، عن بعد ، بعض الشبه ، كأن احد المثالين نحتهم على عجل في الصخر . . . وهذه المغارة تعد حقًّا أعجوبة من أعاجيب الطبيعة لكثرة ما فيها من النواتي ، وانها لترتسم صورها في المخيلة لغرابة اشكالها . ولما انتهينا الى آخر الممر ، ووجدنا الصخر يرتفع في وجهنا ، مع ان دهليز المياه ذاته ، لا يزال واسعاً يتغلغل الى الداخل ، لكن لا سبيل الى السير فيه ، التفت الينا الدليل قائلاً : — « هنا آخر الحدود المسموح بها ، كما ترون . والنية متجهة الى التوسع في داخل هذه الدهاليز والانفاق ، عما قريب . ولعلكم تشاهدونها وقد تمت في الزيارة التالية ... والآن نرجع من حيث أتينا . . . ومع السلامة ! . . . . »

***

وكان الميعاد قد أزف للمثول بين يدي غبطة البطريرك الماروني الجليل ، فأسرعت خارجاً من المغارة ، نحو السيارة . . . . قالي الديمان ! . . . .